﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ١٧﴾ [الحديد: 17]

القلوبُ القاسيةُ يُحييها الذِّكْرُ كما يُحيي اللهُ الأرضَ بعد موتها

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

لمّا ذكرتِ الآيةُ السّابقةُ تحذيرَ المؤمنين من الوقوع في غفلة الأمم السّابقة من أهل الكتاب، الذين طال عليهم الأمد في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾، وبيّنت أنّ قسوة القلوب ليست محضَ تبلُّدٍ في المشاعر، بل كانت بابًا لإنكار الحقائق الكبرى، وفي مقدِّمتها إنكارُ البعث؛ جاءت هذه الآيةُ بالتّذكير الإلهيّ بمبدأ الإحياء بصورةٍ بديعةٍ ومقنعةٍ بقوله تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾[1] لإثبات البعث.

ومنها: لمّا نهى اللّهُ المؤمنين في الآية السّابقة أن يكونوا عند سماع القرآن غيرَ مُتدبِّرين لمواعظه كاليهود والنّصارى الذين قست قلوبُهم لمّا طال العهدُ بينَهم وبين أنبيائهم؛ جاءت هذه الآية بضَرْبِ المَثَل لتأثير المَواعظ وتلاوةِ القرآن في القلوب بقوله: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُحۡيِ﴾: (حيّ) أصلان؛ أحدهما: خلاف الموت، والآخر: الاستحياء الذي هو ضِدّ الوقاحة[3]. يدلّ اللّفظ على إيجاد الرّوح في الكائن الحيّ، فكلُّ كائنٍ حيٍّ ينطبق عليه هذا الوصف، وهو أيضًا

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 281.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 460.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حيّ).

"قوةٌ ساريةٌ تتمثّل في الحِسّ والنّمو، وهو حركةٌ واتّصالٌ وامتدادٌ مع الطّراءة"[1]، ويَرِد هذا اللّفظُ للقوّة النّامية المتوافرة في النّبات والحيوانِ؛ فيوصفُ النّبات بالحيّ[2]. ومعنى ﴿يُحْيِ﴾ في الآية: أنّه سبحانه يُصلح الأرض بعد يبسها[3].

2) ﴿مَوْتِهَا﴾: (موت) أصلٌ صحيحٌ يدلّ على ذهاب القوّة من الشّيء، ومنه الموت: خلاف الحياة[4]. والموت يدلّ على ما ليس فيه روح، وهو مفارقة الرّوح للجسد[5]، والتّعبير عن الموت في القرآن الكريم جاء محدودًا في سياقاتٍ واضحةٍ، كموت الأحياء من البشر، وموتِ البلاد والقرى، وموتِ الأرض[6]. ومعنى ﴿مَوْتِهَا﴾: إخراجُ النّبات والشّجر منها بعد أن باتت يابسةً مُجْدِبةً[7].

3) ﴿تَعْقِلُونَ﴾: (عقل) أصلٌ واحدٌ مُنقاسٌ مُطَّردٌ، يدلّ عِظَمُه على حُبْسَةٍ في الشّيء أو ما يُقارب الحُبْسة؛ من ذلك العقل، وهو الحابِسُ عن ذميم القول والفعل[8]. و"العقل: نقيض الجهل...، والمعقول: ما تعقله في فؤادك، ويُقال: هو ما يُفهَم من العقل"[9]، وكلّ ألفاظِ العقل تدور في فَلَك الحَبْسِ والمَنْعِ، فالعقل يحبس الإنسان، ويمنعه من ارتكاب المحظورات، والعقل يُطلَق على القوّة المُستعدَّة لموافقة العِلْم وتقبّله[10]. ومعنى ﴿تَعْقِلُونَ﴾ في الآية: كي يكتمل عقلُكم[11] بالنّظر في الآيات، فتبلغوا الرّشد، وتستبينوا سبيلَ الهدى.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

اعلموا عِلْم يقينٍ وإيمانٍ أنّ اللّه سبحانه يُحيي الأرضَ بعد أن يبست وانقطعت عنها أسبابُ الحياة، فيَنْثر فيها نبضَ النّباتِ من جديدٍ، فترتدي حُلّةَ البهاءِ بعدَ جَدْبٍ

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حيي).
(2) الخليل، العين: (حيو)، والرّاغب، المُفردات: (حيي).
(3) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 3/ 406.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (موت).
(5) الجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المُفردات: (موت).
(6) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (موت).
(7) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 4/ 235.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقل).
(9) الخليل، العين: (عقل).
(10) الرّاغب، المُفردات: (عقل).
(11) العليميّ، فتح الرّحمن: 6/ 539.

وسكونٍ؛ فكما أحياها بعد موتها، فهو ﷻ قادرٌ على إحياء الأموات بعد فنائهم، وقد ضرب لكم هذا المَثَلَ، وبيّن لكم الآياتِ الباهرات الدّالّةَ على وحدانيّته وعظيمِ قدرته، عسى أن توقِنوا بعقولٍ تتأمَّل، وقُلوبٍ تتدبّر[1].

القادرُ على إحياءِ الأرضِ بعد موتِها قادرٌ على إحياءِ الأجسامِ بعد فنائِهِ

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرّ فصلِ هذه الآيةِ عمّا قبلَها:

فُصِل قولُه تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾ عمّا قبلَه؛ لأنَّه بمنزلة التّعليل لما تضمّنَته الآياتُ السّابقة من لَدُن قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ﴾... ﴿فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ﴾ من التّحريض على الخشوع، ولينِ القلب[2].

تعليلٌ مُتضمِّنٌ التّحريضَ على الخشوعِ لذِكرِ الله تعالى

بلاغةُ تصديرِ الآيةِ بفعلِ الأمرِ ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ﴾:

تصدير الآيةِ بقوله: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ﴾ يدلُّ على التّنبيه وإيقاظِ القلوب من غفلتها، وفيه ترسيخُ اليقين، فكما تُؤمنون بإحياءِ الأرضِ بعد موتها، فآمنوا بقدرة الله تعالى على بعث القلوب والأجساد[3]. وفيه إشارةٌ بأنّ ما سيُلقَى بعدَه من القول أمرٌ جليلُ الخطرِ، عظيمُ الأثرِ، يقتضي استحضارَ القلبِ، وتوجُّهَ الذّهنِ بكُلّيَّته، كقوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ﴾ [البقرة: 235]، إذ أُريد به تمثيلُ حالِ احتياجِ القلوب المؤمنةِ إلى ذِكر الله، بحال الأرض المَيْتَة في حاجتها إلى المطر، وحالِ الذِّكْر في تزكية النّفوس واستنارتها، بحال الغيث في إحياء الأرض المُجْدِبة[4]. وممّا يُذْكر في دلالة الأمر الوارد على حقيقته؛ لأنّه من الأعلى – وهو الله تعالى – إلى الأدنى –

تنبيهٌ واستيقاظٌ يُرادُ به ترسيخُ اليقينِ في القلوبِ

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 4/ 235.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 393 - 394.
(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 9/ 525.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 393.

وهُم البشر - لتذكيرهم بأنّ هذه الحياةَ زائلةٌ وأنّ الإنسان سيموت؛ فعليه أن يعملَ لدار القرار؛ لأنّ الله يُحييه للحساب، كما يُحيي الأرض بعد موتها.

سِرُّ التّعبيرِ بالعلمِ بقولِهِ: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ﴾ مع إحياءِ الأرضِ:

في الإحياءِ تمثيلٌ خفيٌّ على بَعْثِ القلوبِ

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالعِلم، مع أنّ إحياء الأرض بعد موتها أمرٌ ظاهرٌ لا خفاء فيه، إذ يشهده النّاسُ في كلّ وقتٍ بما ينزل من المطر، ومع هذا جاء التّعبيرُ عنه بقوله: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ﴾، لا لمُجَرّد الإخبار، بل لما يتضمّنُه من دلالةٍ تمثيليّةٍ غيرِ مألوفةٍ، يُراد بها إيقاظُ القلبِ إلى نظيرٍ أعظم، وهو إحياءُ القلوبِ وبعثُ الأجساد[1]، كما جاء في قول النّبيّ ﷺ لأبي مسعود: «اعْلَمْ، أبا مَسْعودٍ! لَلَّهُ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عليه»[2].

دلالةُ الالتفاتِ في قولِهِ: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ﴾:

تنبيهٌ إلى أهمّيّةِ ما سيُلقَى في الكلامِ

الخطاب بفعل الأمر ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ﴾ موجَّهٌ إلى المؤمنين على سبيل الالتفات، إقبالًا عليهم، وتكريمًا لهم، وتنبيهًا إلى أهمّيّة ما سيُلقَى في سياق الكلام[3]، والخطاب بهذا الفعل فيه إشارةٌ إلى دعوتهم إلى التّرقّي في السّلوك الإيمانيّ، ليَجتمعَ لهم خشوعُ الباطنِ وخضوعُ الظّاهر.

دلالةُ التّأكيدِ بـ﴿أَنَّ﴾:

الاعتناءُ بشأنِ الخبرِ وتأكيدُه في نفسِ السّامعِ

في التّوكيد بـ﴿أَنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ دلالةٌ على الاعتناء بشأن الخبر وتأكيدِه في نفس السّامع، إذ ليس الغرضُ مجرّدَ الإخبار، بل ترسيخَ اليقينِ بحقيقةٍ عظيمةٍ قد تَذْهَل عنها القلوب، وهي قدرة الله على الإحياء بعد الموت، ممّا يُمهِّد للحديث عن إحياء القلوب القاسية، كما أحيا الأرض بعد موتها.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 393.
(2) مسلم، صحيح مسلم، حديث رقم: (1659).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 394.

بلاغةُ استعمالِ لفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾:

المَلِكُ الأعظمُ لا يُعجِزهُ شيءٌ في الأرضِ ولا في السّماءِ

أوثِر التّعبيرُ بالاسم الجليل في قوله تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ دونَ غيرِه من أسمائه الحسنى؛ لأنّه الاسم الجامع لصفات الكمال والجلال، ولأنّه المَلِكُ الأعظم الذي لا يُعجِزه شيءٌ[1]، فكان ذِكْره في مقام الإحياء إيذانًا بأنّ هذا الفعلَ العظيم لا يكون إلّا لِمَن له القُدرة المُطلقة والإرادة النّافذة.

دلالةُ استعمالِ الفعلِ ﴿يُحۡيِ﴾ دونَ (ينبت):

بلاغةُ الإحياءِ في موضعِ الإنباتِ استعارةٌ توقِظُ المعنى وتُجَسِّد القدرةَ

آثَر التّعبيرُ القرآنيّ استعمالَ الفعل ﴿يُحۡيِ﴾ دون أن يقول: (يُنبت)؛ لأنّ التّعبير بالإحياء أبلغُ، وهو من باب الاستعارة، إذ شُبِّه إنباتُ النّباتِ في الأرض بإحياء الميّت، وشُبِّهت الأرضُ القاحلة بالمَيْتة[2]، فكان الإحياء كنايةً عن إنزال الحياة في الأرض بعد جَدْبها.

دلالةُ التّعبيرِ بالفعليّةِ ﴿يُحۡيِ﴾ دون الاسميّةِ (محيي):

إحياؤهُ للمَواتِ مُتجدِّدٌ لا ينقطعُ

استعمَلَ التّعبيرُ القرآنيّ صيغةَ الإحياءِ المُضارعيّة ﴿يُحۡيِ﴾ بدلًا من الاسميّة (المحيي)؛ لما في الفعليّة من دلالة على التّجدُّد والاستمرار، فهي تُشير إلى أنّ إحياءَ اللّهِ للأرض ليس أمرًا وقعَ وانقضى؛ بل هو فعلٌ مُتكرّرٌ مشهودٌ[3]، يتجدّد في كلّ حينٍ، فتراه الأعين وتشهده القلوب، وهذا دليلٌ على قيوميّته سبحانه على مُلْكه. وممّا يُذْكَر في سِرِّ استعمال صيغة الفعل المضارع ﴿يُحۡيِ﴾ بدلًا من الاسم (المُحْيي)؛ ما في الفعل من استحضارٍ لصورة الإحياء العجيبة الجارية أمامَ العيون؛ لأنّ المضارع يُجَسِّد الفعلَ، ويجعلُه حيًّا نابضًا بالحركة، دالًّا على تجدُّدِ القدرة الإلَهيّة واستمرارِها، ممّا يُعظِّم وقعَ الآيةِ في النّفس، ويُؤكّد استحقاقَ اللّهِ وحدَه للتّعظيم والإفرادِ بالعبادة[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 281.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 123.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 281.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 68.

دلالةُ التّعبيرِ بإحياءِ الأرضِ:

إحياءُ الأرضِ شاهدٌ على توحيدِ اللهِ الباقي

في تخصيص إحياء الأرض من قوله تعالى: ﴿ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ دلالةٌ بليغةٌ، إذ إنّ إحياء الأرض بعد موتها دليلٌ على وحدانيّة الله وقدرتِه، وهو من الآيات الدّالّة على توحيده، التي تُبيِّن عظمةَ خالقِه وقدرته على البعث والنّشور[1]، ولأنّ القادر على إحياء التّراب بالمطر قادرٌ على إحياء القلوب بالذِّكر، وإصلاحِها بعد قساوتها حتّى تلين، كما أحيا الأرض بعد موتها بالمطر، وأعاد إليها الحياة والنّضارة[2].

دلالةُ ارتباطِ إحياءِ الأرضِ بذِكرِ اللهِ في الآيةِ السّابقةِ:

تمثيلٌ لقدرةِ اللهِ على بعثِ القلوبِ وإزالةِ قسوتِها بذِكرِ اللهِ

ارتباطُ إحياء الأرض بعد موتها بذِكرِ اللّهِ في الآية السّابقة يعود إلى أنّ الموجبَ الأعظم لقسوة القلوب هو إنكارُ البعث، وقد كان العرب أشدَّ تماديًا في ذلك من أهل الكتاب، فصار عملهم بما يَدلّ على القسوة كعمل مَن يُنكر الإحياء أصلًا؛ فجاء ذِكْر إحياءِ الأرض تهديدًا لِمَن قسا قلبُه، وتقريرًا لما فُتِحت به السّورة من إثبات القدرة على الإحياء، مُشيرًا بذلك إلى قدرة الله على إحياء القلوب، ومُمثِّلًا إزالةَ قسوتِها بما يورثُه الذِّكرُ والتّلاوة من لينٍ وصفاءٍ، ترغيبًا في دوام الإقبال على الوحي ومواعظه[3]. وفي اقتران ذِكر إحياء الأرض بعد موتها بذِكر الله دلالةٌ بليغةٌ، إذ جاء ذلك تمثيلًا لأثر الذِّكر في القلوب، وأنّه يُحييها كما يُحيي الغيثُ الأرضَ المَيْتة[4]، فالمعنى: أنّ القلوب التي ماتت بسبب القَسْوة، تعود إليها حياةُ الخشوع بالمداومة على الذِّكْر، كما تعود الحياة إلى الأرض الجُرُز إذا نزل عليها الغيث[5]. وممّا يُذْكَر في دلالة ارتباط إحياء الأرض بعد موتها

(1) الزّجّاج، معاني القرآن: 5/ 126.
(2) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 3/ 406.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 281.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 478.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 461.

بذِكْر الله؛ أنّ الله كما يُحيي الأرضَ فيُخرج منها النّباتَ بعد أن تفتّت وصارت ترابًا، فكذلك يُحيي الأجسادَ بجمعها وإفاضةِ الأرواح فيها، كما فعل بالنّبات، وكما خلق الأجسامَ أوّل مرّةٍ؛ ولا فرق بين الأمريْن، بل الابتداء في العادة أصعبُ؛ فاحذروا سطوتَه، واخشَوا غضبَه، وارجوا رحمتَه في إحياء القلوب، فإنّه كما أحيا الأرض بروح الماء، فهو قادرٌ على إحياء القلوب بروح الوحي، لتلين بعد قسوتِها، كما ربَتِ الأرضُ بالمطر بعد يُبْسِها وموتِها[1].

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلْأَرْضَ﴾:

(أل) في لفظ ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ﴾ للعهدِ، فهي الأرضُ المُحدَّدة والمعروفة التي يعيش عليها النّاس. ويجوز في الألف واللّام في كلمة ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ أن تكون للجِنْس التي تفيد العمومَ والاستغراق، حيثُ تشمل جميع أجزاء الأرض وجنسها، وفي هذا بيانٌ لقدرته تعالى على إحيائه للأرض بكاملها، ولا تعارضَ بين المَعنيَيْن؛ لأنّ المُراد بها الأرضُ التي نعيش عليه.

المُراد بها الأرض التي يعيشون عليها

دلالةُ التّعبيرِ بقوله: ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾:

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بقوله: ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ دونَ (الأرض الميتة)؛ للإشارة إلى أنّها كان بها حياةٌ من الزّروع والثّمار، كما أنّ الإنسان كانت له حياةٌ قبلَ موتِه، فأحيا اللّهُ الأرضَ بعد أن كانت مُجدبةً لا زرعَ فيها ولا حَبَّ، سواءٌ كان بعد مدّةٍ طويلةٍ أو قصيرةٍ من الزّمن؛ فأحياها بالزّرع، والشّجر، وإخراجِ الثّمر[2]، بخِلاف التّعبير بالأرض المَيْتة؛ فإنّه يُشير إلى عدم وجود حياةٍ لها بالنّبات والزّروع قبلَ ذلك.

بيانُ القدرةِ الإلَهيّةِ في إحياءِ الأرضِ بعد الموتِ والجُمودِ

سِرُّ عدمِ ذِكْرِ (مِن) هنا، مع ذِكْرِها في قوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا﴾:

جاء قولُه تعالى: ﴿يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، دونَ ذِكر حرفِ الجَرّ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 281 - 282.
(2) الهلال، تفسير القرآن الزّيّ: 6/ 181.

(مِن)، بخلاف ما ورد في مواضع أُخرى كقوله في العنكبوت: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا﴾ [العنكبوت: 63]؛ لأنّ المقام في سورة الحديد يدلُّ على ثبوت الإحياء، من حيثُ هو فعلٌ دائمٌ مستمرٌّ، مُتحقّقٌ بالفعل وبالقوّة، لا موضعَ لتقييده أو تخصيصه، فكان حَذْفُ (من) أنسبَ لدلالة العموم والشّمول[1].

ثبوتُ الإحياءِ بالفعلِ والقوّةِ اقتضى عدمَ الذِّكرِ

سِرُّ التّعبيرِ بالاسميّةِ في ﴿مَوۡتِهَاۚ﴾ دونَ الفعليّةِ:

في استعمالِ صيغةِ الاسمِ ﴿مَوۡتِهَاۚ﴾ دون الفعلِ تجسيدٌ لصورةِ جَدْبِ الأرضِ في حالتِها القاحلةِ، إذ جعل الموتَ لها صفةً مستمرّةً ودائمةً، مُعتبرًا إحياءه لها بعدَ هذا الموت قوّةً وإرادةً مستمرّةً، فجاء هذا التّعبير ليبيّن بوضوح موت الأرض وجدبها[2].

تجسيدُ ثباتِ صفةِ الجَدْبِ، ودلالةُ دوامِ القَحْطِ قبلَ الإحياءِ

بلاغةُ الاستعارةِ في قوله: ﴿يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾:

في قوله تعالى: ﴿يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾ استعارةٌ تمثيليّةٌ مُصرّحةٌ، تنطوي على استعارةٍ مَكنيّةٍ، لما فيها من تشبيه حالِ ذِكْر اللّه والقرآن في إحياء القلوب وتزكيتها، بحال المطر في إنبات الأرض بعد جَدْبها، وقد طويَ ذِكْر الحالةِ المُشَبَّه بها، ورُمِز إليها بلازمها، وهو إسناد الإحياء إلى اللّه، إذ هو الذي يُحيي الأرضَ بالمطر، كما في قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾ [النّحل: 65]، والمقصودُ من هذا التّمثيل الإرشادُ إلى وسيلة الإنابة، والحَثُّ على تعهُّدِ النّفس بالموعظة، والتّذكير بضرورة الإقبال على القرآن وتدبُّره، وكلامِ النّبيّ ﷺ وتعليمِه؛ فإنّ في الالتجاء إلى كتاب اللّه وسُنّة رسولِه النّجاةَ، وفي الاعتصام بهما العصمة[3].

تمثيلٌ بلاغيٌّ لهدايةِ القُلوب بالوحي والذِّكرِ والقرآنِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 281.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 63.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 394.

بلاغةُ الطّباقِ:

تجسيدُ الإحياءِ ضدَّ الإماتةِ، وتجديدُ الحياةِ بعد الجَدْبِ

في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾ تتجلّى بلاغةُ الطّباقِ بين الإحياءِ والإماتةِ، حيثُ يُقصَدُ بالإحياءِ إخراجُ ما تحويه الأرضُ من حياةٍ، كالكَلأ والشّجر والنّبات، وهو ضِدّ الموت[1] الذي يدلّ على الجَدْب والقَحْط وغيابِ الحياة.

سِرُّ فصلِ جملةِ ﴿قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ﴾:

بيانُ وجهِ التّبيُّن والبرهانِ لا مجرّد الإخبارِ

فُصِلت جملةُ ﴿قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ عمّا قبلها؛ لأنّها استئنافٌ بيانيٌّ لجملة ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾؛ إذ إنّ السّامع حين يُؤمر بالعِلم بهذا الخبر، قد يتساءل عن وجه الغرض منه، فجاء قوله: ﴿قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ جوابًا عن ذلك التّطلّب الذّهنيّ؛ أيْ: أعلمناكم بذلك على وجه التّبيين والبُرهان، لا لمجرّد الإخبار[2].

دلالةُ دخولِ ﴿قَدۡ﴾ على الفعل الماضي ﴿بَيَّنَّا﴾:

تأكيدُ البيانِ وتثبيتُ الحُجّةِ والبُرهانِ

يدلّ دخول ﴿قَدۡ﴾ على الفعل الماضي ﴿بَيَّنَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ على أنّه حرفُ تحقيقٍ وتأكيد[3]، يُشدِّدُ على ثبوتِ بيان الله تعالى للآياتِ الواضحة؛ لتثبيت الحُجّةِ عليهم، وإظهارِ وضوحِ الدّليلِ؛ فيُقْطَع إنكارُهم وجهلُهم.

دلالةُ التّعبيرِ بالفعلِ ﴿بَيَّنَّا﴾ مادّةً وصيغةً:

من أبلغِ صورِ البيانِ التّنظيرُ بأحوالِ مَن شابَه المخاطَبين في المقامِ

دلالةُ التّعبير بالفعل ﴿بَيَّنَّا﴾ مادّةً وصيغةً تُفيد الإيضاح التّامَّ، والتّفصيلَ البيّنَ، إذ إنّ البيان يتحقّقُ بفصاحة الكلام وبلاغته، وغزارة معانيه، وحُسنِ عَرْضه، وكلُّ ذلك متحقّقٌ في هذه الآيات كما سلف بيانه، ومن أبلغ صور البيان وأوضحِها التّنظيرُ بأحوال مَن شابهوا المخاطَبين في المقام، سواء كان ذلك في سياق التّحذير أو التّحضيض[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 198.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 394.
(3) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 468.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 395.

دلالةُ نونِ العَظَمةِ في قولِهِ: ﴿بَيَّنَّا﴾:

عظمةُ البيانِ لصُدورِه عن صاحبِ العَظَمَةِ والكبرياءِ

استعمالُ النّونِ الدّالّة عليه سبحانه في الفعل ﴿بَيَّنَّا﴾ مؤذنٌ بعظَمة الفاعل وجلالِه[1]، فإنّ النّون هنا تُشير إلى مقام الكبرياء والعظَمة الإلهيّة، وأنّ هذا البيان صادرٌ عمّن له الكمالُ المُطلق، والعلمُ التّامُّ، والقدرةُ الشّاملةُ.

دلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَكُمُ﴾:

خصوصيّةُ العربِ في فهمِ إعجازِ القرآنِ الكريمِ وإدراكِهِ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿لَكُمُ﴾ على المفعول؛ لأنّه لَمّا كان العرب يتميّزون بفهمٍ خاصٍّ من لسانهم، فقد أدركوا من إعجاز القرآن كثرةَ فوائدِه، وجلالةَ مقاصدِه، ودقّةَ مسالكِه، وعظمةَ مداركِه، وجزالةَ تراكيبِه، ومتانةَ أساليبِه، وغيرَها من خصائصه وأنواعِه وفنونِه، ممّا يجعلهم مُمَيّزين بهذا البيان الذي لم يبلغه غيرُهم، فتحقّق لديهم أنّه كلام اللّه[2].

وممّا يُذْكر في دلالة تقديم الجارِّ والمجرور ﴿لَكُمُ﴾ إفادةُ الاختصاص؛ لأنّ العرب يُنكرون البعث، ويقولون: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [المؤمنون: 37]؛ فكان التّقديمُ بمثابةِ الرّدّ عليهم في إنكارِهم.

دلالةُ التّعبيرِ بـ﴿ٱلْآيَٰتِ﴾ جمعًا:

الآياتُ أعمُّ من المعجزاتِ

أوثِر التّعبيرُ بـ﴿ٱلْآيَٰتِ﴾ دون (المعجزات) أو (العلامات) لعموم هذا اللّفظ؛ فهو يشمل الدّلائلَ العقليّة والكونيّة والتّشريعيّة، ولا يقتصر على الخوارق، ولأنّ السّياق سياقُ موعظةٍ وتذكيرٍ، لا مقامُ تَحدٍّ، فناسبَ أن تُذْكَر ﴿ٱلْآيَٰتِ﴾ التي تدعو إلى التّفكُّر والعقل، لا مجرّد ما يُدهش الأبصار.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 282.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 282.

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلۡأٓيَٰتِ﴾:

استغراقيّةٌ مؤذِنةٌ بشُمولِ الدّلالةِ وكمالِ البيانِ

(أل) في ﴿ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ تُفيد الاستغراقَ، إذْ هي لتعريف الجنس، وهو شأن الجمع المُعرَّف بـ(أل)[1]، فتعمُّ جميعَ الآيات الموضِحَة للحَقّ، الدّالّة على قدرةِ الله ووحدانيَّته؛ تنبيهًا إلى وفرةِ الأدلّة والبراهين.

سِرُّ التّعبيرِ بقولِهِ: ﴿لَعَلَّكُمۡ﴾:

بيانُ الآياتِ لتَعْقِلوا أمرَ البعثِ والنّشورِ

أوثِر التّعبيرُ بقوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ﴾؛ لأنّها تفيد معنى التّرجّي؛ أيْ: رجاءَ أن تستجيب عقولُكم للآيات، وتتفتّحَ أفهامُكم لمعانيها، إذا أنصفتُم النّظرَ، وتأمّلتم أنّها من عند الله تعالى. ويحتمل أن يكون التّرجّي راجعًا إلى فئةٍ مخصوصةٍ من النّاس، مِمَّن علم اللهُ أنّهم يعقلون ويفقهون، فيكون الحرفُ قد خرج عن حقيقته إلى معنى الإلزام والوجوب في حقّهم، إذ هم أهل الاستجابة والإيمان بما بيّنه اللهُ من آياته[2]. وممّا يُذْكَر في سِرِّ التّعبير بـ ﴿لَعَلَّكُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ أنّها تُفيد معنى التّعليل[3]؛ أيْ: إنّ بيانَ الآياتِ وتوضيحَها جُعِلَ لكي تَعْقِلوا أمرَ البعثِ والحقائقِ المرتبطة به[4]، فكما أنّ الله يحيي الأرضَ بعد موتها، فإنّكم أنتُم أيضًا تُبعثون بعد الموت للحساب.

دلالةُ التّعبيرِ بـ﴿تَعۡقِلُونَ﴾ مادّةً وصيغةً:

دورُ العقلِ المُتجدّد في فهمِ أصولِ الدّينِ وحقيقةِ البعثِ

التّعبير بـ﴿تَعۡقِلُونَ﴾ بدلًا من (تتفكّرون) يدلُّ على أهمّيّةِ العقلِ كأداةٍ كافيةٍ لفهم حقيقة البعث، فإنّه من أصول الدّين الأساس، والعقل هنا ليس محضَ تفكيرٍ عابرٍ، بل هو إدراكٌ متواصِلٌ ومُتجدِّدٌ، يساعد المؤمن على إدراك الحقائق الكبرى التي تُؤدّي إلى النّجاة. واستعمالُ الفعلِ المضارع يدلُّ على أنّ الفهم والتّعقُّل عمليَّةٌ مستمرّةٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 395.
(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 9/ 525.
(3) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 18/ 458.
(4) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 3/ 406.

ومُتجدّدة، تُبقي الإنسانَ في حالةٍ من التّأمُّل الدّائم، والتّواصُل الرّوحي مع الحقّ[1].

سِرُّ ختامِ الآيةِ بقولِهِ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾:

خُتِمَت الآيةُ بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾؛ لأنّه يتضمّن معنى الرّجاء والتّعليل؛ أيْ: بيّنا لكم الآياتِ رجاءَ أن تعقِلوا؛ لأنّ حالَكم حالُ مَنْ يُرْجَى فهمُه، فجاء البيانُ ليكونَ عِلّةً لإدراك المعنى، وتدبُّرِ الموعظة[2].

رجاءٌ وتعليلٌ لعقولٍ تميلُ إلى التّأمُّلِ والتّفصيلِ

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التّعقّل والتّفكُّر:

التّفكّر: تصرُّف القلبِ بالنّظر في الدّليل[3]، ولا يُشترط في التّفكُّر إدامةُ النّظر.

التَّفكُّر تصرُّف القلبِ بالنّظرِ في الدّليلِ، والتّعقّلُ عملٌ للعقلِ الرّاسخِ

أمّا التّعقّل: فهو من إعمال العَقْل، ولذلك عبّر بهذا الفعل في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾؛ لأنّ العقل أعمُّ وأعمقُ من مُجرّد التّفكُّر؛ فالتّفكّرُ قد يمرّ مرورًا عابرًا لا يُثْمِر يقينًا ولا التزامًا، أمّا التّعقُّل فهو من أعمال العقل الرّاسخة، وفيه معنى الرّبط والإحكام والمنع؛ إذ يعقل المرءُ ما أدركه، فيمنعُه من الانحراف، ويقيّدُه بحُكْمٍ ثابتٍ بعد نظرٍ وتأمُّلٍ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 282.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 395.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 121.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الستون،
سورة الحدِيد من الآية 14 إلى سورة الحَشر الآية 10
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الستون، سورة الحدِيد من الآية 14 إلى سورة الحَشر الآية 10
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 60 ، 802 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-643-66-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 60 : المجلد الستون، سورة الحدِيد من الآية 14 إلى سورة الحَشر الآية 10.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-643-66-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5294607 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"